

تسونامي ... عذاب أم تحذير؟!

معالى أ.د.غازي بن عبيد مدنى

نشرت جريدة المدينة يوم الجمعة 1426/2/8هـ أن العلماء أفادوا أن (تسونامي) أدى إلى تحرك الهند نحو إندونيسيا بمقدار 12 سم، بعض الجزر الأخرى أيضاً تحركت واحتفت جزر صغيرة، وذلك بتأثير تسونامي واحد فقط.

المخبر أهلـه هو نتيجة للموجة البحرية المهاطلة التي حدثت في المحيط الهندي بين إندونيسيا والهنـد، وأدى إلى دمار كبير شمل عدداً من الدول، قتل أكثر من مائة وخمسين ألف وشـرد مئات الآلاف، وبلغت تكلفة الدمار الملايين من الدولارات.

على إثر ذلك صرـح بعض السادة العلماء أن ذلك المد البحري هو في واقعـه عذاب من الله، وصرـح بعضـهم أنه كان إنذاراً من الله - سبحانهـه وتعـالـى.

فيما يلي محاولة للإجابة على المسـؤـال، هل تسونامي عذاب أم إنذار؟

يقول الله سبحانهـه وتعـالـى: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ) (الملك: 16)

ويقول سبحانهـه وتعـالـى: (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا) (الطور: 9)

الله سبحانه وتعالى خلق الكون منذ أمد بعيد، هكذا نؤمن نحن عشر المسلمين وليس كما يدعى المفسهاء أن الكون وجد (صادفة) وهو أمر غريب وشاذ أن يقوله من حباه الله عقلاً يفكر به، خاصة إن كان يدين بدين سماوي.

الله - سبحانه وتعالى - خلق الكون بعلم فهو سبحانه العليم، هو العلم كله، وخلق للكون قوانين وأنظمة تُسْرِّيْه وحيث إن الله سبحانه هو أحسن الحالتين فإن خلقه يأتي كاملاً، كذلك القوانين العلمية كاملة غير منقوصة وغير قابلة للفشل، وحينما يقول سبحانه وتعالى: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحِسْبِ إِلَهٍ رَّحْمَنٍ) ، فإن هذا يعني أن الشمس والقمر منذ أن خلقاً فإن حركتهما لم تتغير قيد أنملة. ببساطة لأنهما لا يملكان إلهاً الخذل الذي خلقه تجلت قدرته، وقد عرف الإنسان هذه الحقيقة منذ سنين عبر رصده لحركة الشمس والمطر، وأصبح يسجل التاريخ بهذه الحركة لأن الحركة هذه تحدد تعاقب الليل والنهار، وتعاقب الشتاء والصيف.

والله - سبحانه وتعالى - خلق تحت السماءات خلقاً كثيراً منها أعداداً كبيرة من مخلوقات عظيمة الحجم والشأن يطلق عليها (المجرات) وكل مجرة تتكون من عدد كبير من النجوم والمكواكب والأجرام، بعض المجرات تضم كواكب وشموس وأرضين الموحد منها حجمه مرات عديدة حجم الكوكبة الأرضية.

كل ذلك يسير بدقة متناهية، وكلُّ في موقع واضح ودقيق، يرتبط بعضها ببعض بدقة تفوق قدرة العقل البشري، يقول سبحانه وتعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا وَاقَعَ الْمَنْجُومُ وَإِنَّهُ لِقَسْمٌ لَوْلَامُونَ عَظِيمٌ) (المواقعة: 75، 76). وقد بدأ الإنسان يعرف عظم هذا القسم بعد أن اكتشف بعضاً من المجرة التي هي جزء منها وهي مجرة (المتباعدة). وعرف أن بها آلاف المكواكب والأجرام، وكلُّ في موقع دقيق داخل المجرة، كما تم تنظيم المجرات وتحديد مواقعها مع بعضها البعض تعجز أعظم الحاسيبات الإلكترونية الموجودة حالياً عن المتابعة بمثل هذا التنظيم.

خلق الله - سبحانه وتعالى - الشموس والأرضين والمجرات العظيمة الحجم، وبجانب هذه المخلوقات العظيمة خلق الله سبحانه مخلوقات دقيقة الحجم لا ترى بالعين المجردة بل تحتاج إلى مكبر قوي كي ترى بوساطته، فهو يكبرها عشرات ومئات المرات حتى يمكن أن تدركها العين. يتحكم في تنظيم هذه المخلوقات الدقيقة سنن وقوانين بنفس المنطق الذي تسير به الأجرام والمجرات. والله سبحانه خلق الإنسان وكرمه على كثير من الخلق، والإنسان المخلوق الوحيد الذي سجد له الملائكة وهو أيضاً المخلوق الذي أعطى حق الم اختيار، هذا الإنسان لا يتحكم في جسمه، بل إن جميع أعضاء جسمه تعمل بانضباط عظيم، تبدو كأنها تعمل بنفسها دون أي تدخل، وهي في الواقع تعمل بقانون إلهي عظيم. الإنسان بين فينة وأخرى يكتشف أجزاء من هذا القانون فيتعلم كيف يتعامل مع جسمه.

الأمثلة الذي ذكرت آنفاً توضح لنا أن الله - سبحانه وتعالى - هو المخلق وأن المخلوق لا يستطيع أن يخلق ولا حتى ذباباً، وأنه سبحانه وهو العليم بكل المخلق وما ينتظم المخلق هو علم جزء من علمه سبحانه فهو العلم كاملاً. ونحن عشر البشر لسنا إلهاً مخلوقات صغيرة تعيش على كوكب صغير ويوجد في الكون ملائين المكواكب والنجوم والأقمار، هذه الأرض في مجرة واحدة يوجد غيرها ملائين، بعض النجوم وبعض المجرات أكبر بآلاف المرات. فهم هذه الحقيقة مهم جداً لأنه يؤدي إلى الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - إيماناً ومطلقاً، وأيضاً إيماناً مطلقاً بقوانينه. والله سبحانه يبحث الإنسان على أن يبحث ويتعلم ويكتشف القوانين والأنظمة التي أوجدها.

إذا أدركنا هذا كله فلابد وأن تخاف الله سبحانه ونخشاهه. فنحن ليس في مقدورنا معرفة كل وجميع القوانين والأنظمة، وكان رسولنا رسول المهدية سيدنا محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - إذا رأى سحاباً يقول: (اللهم حولينا لـا علينا اللهم على الآكام والمطر وبطء المؤدية ومنابت الشجر) وذلك ليس عدم رغبة في المطر، فالمطر خير ولكن الخوف مما يخبئه السحاب، وقد حدث لقوم عاد أن فرحاً لرؤيا السحاب الكثيف الذي أتاهم عارضاً أو ديتهم بعد فترة حفاظ، وقد كان في ذلك السحاب عذاب شديد، وقد خيل لهم أنه سحاب بينما كان ريحًا عاتية، السحاب الذي هو خير وبركة هو أيضاً قد يكون عذاباً شديداً. نعود بالله أن يحique بنا عذابه.

ما سبق ينير أمامنا الطريق لكي ذري أن ما أحدثه الزلزال البحري من الموج المدمر الذي يسميه اليابانيون (تسونامي) هو آية من آيات الله - إحدى سننه وقوانينه - سبحانه وتعالى، مثله مثل غيره من آلاف الآيات والقوانين التي تنتظم المخلق.

أثبتت البحث العلمي ورصد الأحداث أن (تسونامي) ليس مجرد حدث مرأة واحدة فقط، بل هو يتكرر كثيراً وبنفس المقاييس، هكذا قال اليابانيون وهم الذين يهاجمهم هذا النوع من الموج البحري المهاطل بين كل فترة وأخرى.

يقول الله سبحانه وتعالى: (أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (الملك: 16)، (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا) (الطور: 9) كلمة تمور وردت مررتان في القرآن الكريم، في سورة الملك وفي سورة الطور. تفسير الجلالين يشرح تمور بقوله: تتحرّك بكم وتترفع فوقكم، وتتحرّك وتدور. ويقول الدكتور محمد حسن الحمصي في تفسير وبيان القرآن الكريم، تمور: تحرّك وتضطرب وتدور كالرّهي وتتشقّق. ويقول الدكتور زغلول النجار: المعنى الصحيح لكلمة تمور هو عملية حدوث تسونامي كما سترجعه لاحقاً.

إن الذي حدث هو خسف في قاع البحر نتيجة احتكاك الصفائح الموجودة في باطن الأرض، الخسف البحري العظيم يسحب مياه المحيط إلى جوف الأرض ثم يدفعه من جديد فيندفع الماء إلى أعلى محدثاً موجات عالية قد يبلغ ارتفاعها أربعون متراً، تتحرّك بسرعة كبيرة تبلغ أحياناً ثمانمائة ميل في الساعة، أي سرعة طائرة جامبو 747. هذه الموجة العاتية تتجه نحو الشواطئ فتضربها بتلك المسارعة العظيمة مسببة الكثير من الدمار والخراب والأهانة من ذلك الكثير من المقتلى. هكذا فإن (تسونامي) حدث يمكن تفسيره علمياً أو على الأصل أن الإنسان اكتشف هذه حيث استطاع بما حباه الله من علم قليل منهم ومن ثم تفسير الحدث علمياً، وبدأ يفهم (قانون) تسونامي. ولكن الذي عرفه - حتى الآن - هو جزء من القانون، وإلى أن يمن الله عليه ويعرف أي يكتشف كاملاً القانون وإلى أن يتم ذلك فإن الإنسان لا يستطيع السيطرة على القانون وبالتالي يحمي نفسه منه أو يستخدمه لصالحه. إن (تسونامي) الذي نتحدث عنه هو حدث مخيف بالمقاييس البشرية وهو في نفس الوقت آية من آيات الله، أحد قوانينه يُظهر بها عظمته وعلمه، ويسير بها كونه، يخوف بها عباده ويعذبهم بها. إن حدث يجعل الإنسان يوقن أن هذا الحدث من العظمة بحيث لا تكون مرجعيته إلا إلى المخالق المجبور تجلت قدرته وعظمته سبحانه وتعالى.

تسونامي آية عذاب أم آية إنذار وتخويف؟!

(تسونامي) لا شك في أنه آية من آيات الله مثله مثل الكسوف والكسوف، والرعد والبرق - وغيرها كثيرة - هي سنن الله في كونه، أي

هي قوانين تنظم إدارة خلق الله وكل الذي في الكون هو خلقه سبحانه.

اكتشف الإنسان - بالمراقبة والرصد والتحليل العلمي - كيف يعمل قانون هذه الآية - أي تسونامي - ولكن لم يعرف بعد لماذا تحدث هذه الآية؟ وأيضاً لماذا تحدث على درجات متفاوتة؟

فيحدث تسونامي مدمر كهذا الذي نتحدث عنه، أو يحدث تسونامي أقل عنفاً وتدميراً كما سجل الميايانيون.

الذي أوردناه آنفًا يؤكد أن الإنسان لا يعرف على وجه الدقة إن كان (الحدث) هو مجرد (إنذار) لكي يتوب الناس إلى رشدهم، أم هو عذاب حقيقي يصيب مجموعة من الناس.

لذلك قد يكون من المتسرع أن تصنف الآيات على أنها آيات عذاب أو أنها آيات إنذار، الله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وقوانيقه، جهل الإنسان وقلة علمه، (وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا مَا لَيْلًا) (الإسراء: 85) يجعلنا نتخيل المذعر في الحكم ونخوض في آيات الله سبحانه وقوانيقه. خاصة وأن (تسونامي) هذا الذي نتحدث عنه تسبب في قتل عدد كبير من الأطفال بلغ عشرات الآلاف، وذكرت المصحف أن معظم الأطفال كانوا أطفالاً مسلمين.

هنا تأبد وأن نشير إلى أن الأسباب الذي ذكرها الله سبحانه في إبادة وعذاب أقوام، تلکم الأسباب والأفعال عادت لتظهر في عصرنا الحاضر، مثلًا: قوم لوط والذي فعلوه من المفحش الذي أدى إلى عذابهم وإبادتهم، نجد أن بعض المجتمعات - في العصر الحاضر - يقتنون هذا الفعل المفاحش ويعتبرونه حرية يمارسها الشواذ المنحرفين. لا شك أن هؤلاء ينتظرون غضبه وعذابه، ولكن من يعلم متى؟ وكيف؟ وبأي قانون يوقع عذابه.

لذلك يمكن القول إن بعض آيات الله تحذيري البشر وهي تحذير وإنذار لمن يتعظ، وفي نفس الوقت فإن بعضها قد يكون عقاباً صارماً ماحقاً. لمن لم يتعظ ولم يفهم التحذير.

وحيث إن الإنسان لم يبلغ درجة من العلم تمكنه من الحكم (الحدث) لذلك نذهب إلى أن الآية قد تكون إنذاراً وتحذيراً، وقد تكون عقاباً وعداباً. والله أعلم.

اللهم إن نسألك أن تلطف بنا وأن ترحمنا وأن تهدننا إلى دينك الحق دين الإسلام وعلى هدى نبيك سيدنا محمد - عليه أفضل المصلحة والسلام - وألا تؤاخذنا بما يفعل المفسهاء منا.